البَـــردُ المُقعِـــد! (مقال)[1]

"سألـــتُ المحبّـــــــين الذين تحمّلـــوا ** تباريـحَ هذا الحُبِّ من سالفِ الدهر
فقلـــتُ لهم: ما يُذهِـب الحبَّ بعدما ** تبـوّأ مـا بين الجـــــوانحِ والصّـــدرِ
فقـــالوا: شفـــاءُ الحبِّ حبٌّ يزيله ** من آخر، أو نأيٌ طويلٌ عــلى هَجرِ
أو اليـــأسُ حتى تذهــلَ النفسُ بعدما ** رجت طمعاً، واليأسُ عونٌ على الصّبرِ"

●●

قلتُ مرّةً مَن أراد أن ينظر إلى لوعة الشوق ولاعج الوجد متمثّلَين في صورة أحرف وكلمات فليطالع هذه القطعة! وأذكر أنني كنتُ أتمتم بكلماتها ذات مرة –(المحبين)، (تحملوا)، (تباريح)، (الحب)، (الجوانح)– فاستبان لي أن وراء حرف الحاء المتكرر حُرقةً مُمضّةً يخفّفها النطقُ به، وأن "جوزيف كونراد" كان محقّاً عندما شبّه الفلفل الحار بقلبٍ تشتعلُ فيه جذوةُ الحب! فالفلفل هو الذي أشبه في حرارته الحُبّ لا العكس.

يُخيّل لي أن هذه القطعة هي إحدى الزفرات اللواتي (تكادُ تنقضُّ منهنّ الحيازيمُ) كما يقول غيلان، أو هي زفرات قابعة في صدر صاحبها لا تغادره، فهي فيه تصعد وتهبط كأنها تائه ضلّ الطريق! كما وصفها الصمّة القشيري بقوله:

إذا زفراتُ الحُبّ صعَّدن في الحشا ** كرَرن فلم يُعلم لهــــنّ طريقُ!

ولو تأملت قولها (ما يُذهبُ الحُبّ)؟ وسرَح فكرُك حتى خيّلَ لك السائلةَ وهي تكفكف برمشِها دمعةً تكاد تنحدر، وتمنعها عزّتُها عن رفع يدها وإمرارها على وَجنتِها، وأصغيتَ إلى صوتها وهو يتهدّج كسريرِ صبيٍّ ما تفتأ أمّه تؤرجحه: (ما يُذهبُ الحُبَّ بعدما تبوأ ما بين الجوانح

[1] أصل هذا المقال تعليق على أبيات (أم الضحاك المُحاربيّة) التي أنشدَتها حزنا على طلاق زوجها لها، وهي إحدى المقطوعات التي اختيرت في قناة: (مختارات شعريّة للحفظ)، https://t.me/poetry_sn.

والصّدر)؟= لأبصرت بجلاء صراعَ المشاعر الذي تخوضه هذه المرأة، ولربما سمعت قعقعةَ هذا الصراع، وما هو إلا صوتُ اضطرام نار الوَجد في قلبها ..

وما جرَّها إلى هذا الحال إلّا كثرة السؤال، وإدامة الفكر، وإطالة الأمل، فإنّ الحبَّ (كامن كُمُونَ النار في الحجَر، إن قدَحتَه أوْرَى، وإن تركته تَوارى) ..

لهذا كنت أقف كثيراً متأملاً ذلك الجواب الذي ختمَت به وصفةَ علاج الحبّ: (اليأسُ حتى تذهلَ النفس)! وطنَّ في رأسي قولُ شبيب بن البرصاء: (فقد يعزِفُ اليأسُ الفتى فيعيجُ) ..

إي وربي، قد يعزِفُ اليأسُ الفتى -بعد طول مدة- فيُطأطئ رأسه برهةً، ثم يرفعه مرةً أخرى، وعيناه تشعّان ببريقِ الأنَفة عن مراده الذي كان يطلب، وتنخذل جحافلُ عزيمته التي كان يعدّها لتحصيل مطلوبه ..

وهكذا تُطوى صفحة من صفحات النضال، وينقضي فصل "الشوق" بحرارته، وتسقطُ على الأرض إحدى أوراق الخريف معلنةً دخول فصل (اليأس) ببردِه!

من هنا تدرك جوابَ بعض العرب لما سئل: ما أبرد من الزمهرير؟ فقال: اليأس! وتتفطن لقول الشاعر:

ولقد جعلتُ اليأسَ بَيــ ** ــن جوانحي فوجدتُّ بردَه

إن حرارةَ الشوق وبردَ اليأس يتدافعان، فالشوقُ إذا تخالجَ صاحبَه زاد من عزمِه على الظفر ببغيته، فتجده حثيثَ السعي، واسعَ الخطو، لا ينفكّ عن مداعبة غايتِه ببناتِ فكرِه ..

والعكس في ضدّه، **فاليأسُ إذا حطّ رحلَه في قلبِ امرئٍ أقعدَه عن مراده،** وزهّدَه في تحصيل مطلوبه، وإنك لتجد المرءَ يطمحُ إلى الشيء أعواما، حتى إذا استعصى عليه مرادُه، واستحكم في قلبه اليأسُ؛ لوى عنانَه عنه فلم يعد يجد للسعي إليه لذّة، وأمسى حصوله من عدمه سواء! أوليس قد قيل (اليأس إحدى الراحتين)؟

وقد لمح هذا المعنى أبو محمد ابن حزم في قضية هي أكبر من هذا وأجلّ فقال -رحمه الله-: (وكل ما ذكرنا إنما هو على قدر الطمع، فإذا انحسم الطمعُ عن شيءٍ ما لبعض الأسباب الموجبة له مالت النفسُ إلى ما تطمع فيه، ونجد المقرَّ بالرؤية لله عز وجل شديدَ الحنين إليها، عظيمَ النزوع نحوها، لا يقنع بدرجة دونها؛ لأنه يطمع فيها، وتجد المنكرَ لها لا تحنّ نفسه إلى ذلك ولا يتمناه أصلا؛ لأنه لا يطمع فيه، وتجده يقتصر على الرضا والحلول في دار الكرامة فقط؛ لأنه لا تطمع نفسه في أكثر).

وكثير من الغاياتِ العظيمة التي نرجوها، والمطامح العالية التي نسعى إليها، إنما هي دائرة بين هذين الأمرين، فمن احتملَ حرارةَ الشوق ومُرَّه؛ جهَد نفسَه وبذَل وسعَه، فأوشك أن يحصّل مرادَه، **ومن ركَن إلى بردِ اليأس وخبا من عينيه وهَجُ الإقدام؛ خلا قلبُه من معنى الحياة** ..

فما أحلى حرارةَ هذا الشّوق! وإن كانت تلذعُ صاحبَها أحيانا ..

عُثمان العمودي

شوال ـ ١٤٤١ هـ